ـ ولكنني أخجل، ولا أستطيع المناداة.

فأجابه القسام:

ـ أنا أصيح على بضاعتنا.

وبهذه الوسيلة، تمكن الاثنان، من مواصلة الدراسة، القسام يصيح والتنوخي يلازمه وقوفاً.

وذات يوم، جاء والد التنوخي لزيارته في القاهرة. وقبل دخوله الأزهر، وجد ابنه الى جوار القسام، وكلاهما خلف صدر الهريسة، فسأل مستفسراً:

ـ ما هذا؟

فأجابه ابنه، محاولاً رد التهمة عن نفسه:

ـ عز الدين القسام علمني، وهو صاحب الفكرة!

ولم يصدق الابن، حين سمع أباه يقول:

ـ حقاً.. لقد علمك الحياة[١١]!

الايمان في التطبيق

عاد عزالدين القسام الى قريته «جبله»، حاملاً شهادته الأهلية من الأزهر، عام ١٩٠٣. حاول أبوه، الشيخ عبد القادر، أن يقنعه بضرورة أن يذهبا معاً الى قصر الأفندي ديب، ليسلما عليه. فرفض الابن نصيحة أبيه قائلاً: أيسلم الوافد على المقيم؟! وكانت أول بادرة، تكسر العرف المقلوب، ارضاء لأسياد الأرض، وتسترد للمواطن حقه في عدم الانحناء.

وقبل أن يباشر العمل، قام برحلة الى تركيا[١٢]، للاطلاع على طرق التدريس في جوامعها، وعلى خطب الجمعة ودروس ما بعد صلاتي العصر والمغرب. وعاد الى قريته، مرة أخرى، وهو أشد اقتناعاً، بأن حصر امام المسجد في فروض الصلاة، الصوم، الزكاة، الحج، الوضوء، وغيرها، لايؤدي فقط الى أن يخل الامام برسالته الدينية، بحذفه أو تجاهله الدور المطلوب من المسلم، وانما أيضاً يدفع المؤمنين الى الاستكانة والتواكل والرضى، ويساهم في عزلهم عن قضاياهم وقضايا شعوبهم.

وبدأ يعد نفسه، دون استعجال أو قنوط، بدءاً من الجيل الجديد، فأخذ دور والده في تدريس أطفال القرية، وتجاوز الحدود التقليدية في حفظ القرآن وتجويده، الى العلوم الأولية والقراءة والكتابة. وحينها عمل اماماً لمسجد المنصوري، الذي يتوسط البلدة، مكتفياً بخطبة الجمعة. وقدم لسكان قريته الاسلام، كما آمن به وتعلمه، فدب في القرية حماس ديني شديد «فكانت شوارعها ترى مقفرة اذا أذنت صلاة الجمعة»[١٣].

وأصبح الشيخ عزالدين القسام، الأزهري المتنور، ذو الأصول الفقيرة، محط احترام سكان القرية وتقديرهم، بل وامتدت سمعته وصداقاته الى قرى جبل صهيون وجبل العلويين.

وعندما حاصر الأسطول الايطالي مدينة طرابلس في ليبيا (١٩١١/٩/٣٠)، قاد القسام بنفسه، مظاهرة طافت شوارع البلدة وهي تهتف:

يا رحيم ويا رحمان